انتقـــال نظريـــة التلقـــي

إلى النقد العربي المعاصر

أحمد بوحســـن

كلية الآداب – الرباط

ملخص العرض

يقوم هذا العرض على معالجة مسألة ظهور نظرية التلقي في بيئة علمية وثقافية واجتماعية أوروبية، ألمانيا بشكل خاص، وما عرفته من تلقيات مختلفة في الأوساط العلمية والأكاديمية الأوروبية والأمريكية، وكذا الدراسات التي واكبتها بالتحليل والتمحيص، والنقد أحياناً. ثم انتقالها بعد ذلك إلى الوسط العلمي والنقدي العربي المعاصر.

والهدف من تناول نظرية التلقي هو الوقوف على وضعيتها الأصلية، أي منبتها الأصلي الأورو- أمريكي، ووضعيتها عند انتقالها إلى الحقل المعرفي والنقدي العربي المعاصر، حيث تم استنباتها وتداولها. ولا شك أن اختلاف الأوضاع الأصلية لهذه النظرية مع أوضاع حقل استقبالها واستنباتها، هو أمر يخص انتقال المعارف بشكل عام، وانتقال النظريات بشكل خاص، وانتقال نظرية التلقي هنا بشكل أخص. وهذا الانتقال،أو السفر، أو الترحال، للنظريات ليس وليد اليوم، أو خاص بنظرية التلقي، ولكنه وسيلة من وسائل انتشار المعارف بين الثقافات والحضارات. ولكن الكشف عن مسار استنبات نظرية التلقي في حقلنا النقدي المعاصر، سيبين لنا مقدار استعداد بنياتنا الفكرية والعلمية والثقافية والتربوية والاجتماعية للانخراط في التداول المعرفي الإنساني النظري والعملي المعاصر. ومن ثَمَّ تطوير تصوراتنا النظرية والعملية في التعامل مع معرفتنا الأدبية بمختلف خطاباتها الجمالية والفنية.

ويقوم المنهج المتبع في هذا العرض على المعالجة التكوينية التي تعتمد على معرفة الأطر المعرفية المختلفة التي شيدت نظرية التلقي في أصولها، وعلى التقصي الإبستمولوجي الخاص بالمعرفة المكونة لنظرية التلقي. كما يقوم هذا المنهج على التصورات المعتمدة في الدراسات المقارنة؛ وبخاصة مراعاة الوضع الخاص لحقل استقبال النظرية، ودرجة تهيؤاته المختلفة التي قد تسمح له بالإنتاج النظري العلمي والثقافي للنظرية الأصل.

وسأتعرض في هذا العرض للقضايا التالية: مجال انتقال النظرية، فعل انتقال نظرية التلقي، مكونات نظرية التلقي، الفضاءات العلمية التي ظهرت فيها نظرية التلقي، تكوّن نظرية التلقي، نظرية التلقي في النقد العربي المعاصر.

I- مجال انتقال النظرية

يدخل مجال انتقال النظريات في حقل الدراسات المقارنة، Comparative Studies، والدراسات المجالية Area Studies، والدراسات الكونية Global Studies، وسفر النظرية Theory Travel، والعلاقات الدولية الثقافية، وكذا الدراسات الثقافية والحضارية بشكل عام. والمقصود هنا بالمجال هو المجال الثقافي واللغوي والتاريخي الخاص الذي يتميز عن المجالات الأخرى من حيث اللغة والتاريخ والثقافة والحضارة. وبهذا التحديد التقليدي نميز في محيطنا المتوسطي بين المجال الثقافي والحضاري العربي والمجال الأوروبي، وبعده المجال الأنجلو- أمريكي، ثم المجالات الأسيوية المختلفة والمتعددة بدورها.

ونظراً للوضع الجغرافي والتاريخي لمجالنا العربي المتوسطي الإفريقي والأسيوي، وما عرفه ويعرفه هذا المجال من علاقة بالمجال الأوروبي، وبخاصة في العصور الحديثة منذ القرن التاسع عشر، والتي تعرف بالمرحلة الاستعمارية، ثم مرحلة ما بعد الاستعمار، والمرحلة المعاصرة، فإن مجال انتقال المعارف قد ترسّخ أكثر في المرحلة الاستعمارية، واتسع وتَكَثَّف وتَنَوَّع في مرحلة ما بعد الاستعمار إلى اليوم. ولهذا فإن مجال انتقال المعارف في العالم العربي قد تَحَدَّد تاريخياً في العصر الحديث بالمجال الأوروبي، وبخاصة أوروبا الغربية، ثم المجال الأمريكي-عبر الأطلسي الذي أخذ يتشكل أكثر فأكثر، ثم بروز المجال الأسيوي في العقود الأخيرة. وقد يكون لهذه المجالات الأخيرة الجديدة دور في إعادة صياغة تصورنا العربي للثقافة الكونية ولثقافتنا مستقبلاً.

والذي يهمنا هنا في المجال الجغرافي هو علاقة هذا المجال-المكان بالميدان الفكري والعلمي والثقافي والاقتصادي والسياسي الذي يفعل بطريقة أو أخرى في هذه الميادين بشكل خاص. ويعرف هذا المجال المكاني في الدراسات الثقافية وما بعد الاستعمار بمواقع الثقافة Locations of Culture (1) المتباينة من حيث القوة والسيطرة والتداول. ولا شك أن جينالوجيا هذه العلاقة المعقدة والمركبة مع المجال المعرفي الأوروبي، قد تميزت منذ البداية بالتفوق العسكري والمادي والعلمي والتقني، مما استتبع تباعداً كبيراً ومتنامياً بين المجال الأوروبي والمجال العربي، رغم التغيرات والتطورات التي عرفتها تلك العلاقة، وبخاصة العوامل المؤسسة لها. ومع ذلك، فإن العوامل التي ما زالت تتحكم في تلك العلاقة، ويتم الحرص عليها وعلى استمرارها، تتميز بالخصائص التالية:

-التبعية العميقة المتواصلة في اتخاذ المبادرة الأولى في المجالات الحيوية العلمية والتقنية والعسكرية والاقتصادية والتجارية والثقافية.

-المسافة الكبيرة الثابتة، والمتزايدة أحياناً، بين وضع الإنتاج الفكري والعلمي والتقني والثقافي بين مجالنا العربي، والعربي الإسلامي وبين المجال الأوروبي.

-عدم مواكبة الحِراك الفكري والعلمي والتقني والثقافي الذي يعرفه المجال الأوروبي.

-تأخر وصول المعارف والمنتجات الفكرية والعلمية والثقافية، بشكل خاص، إلى مجالنا المعرفي والعلمي والتربوي. وغالباً ما تصل إلينا هذه المعارف وقد استكملت دورة تَكَوُّنها، من حيث مناقشتها ونقدها، وتَبَيُّنُ مفاصلها التي تحدد درجة قوتها العلمية والفكرية والفنية، ودرجة ضعفها كذلك.

-صعوبة التثاقف في المجالات الرمزية وغير المادية، مثل التصورات الفكرية والفنية والعلمية المرتبطة بالذات والهوية والعقيدة بشكل خاص.

-طغيان الاتجاه ذي البعد الواحد في العلاقة الفكرية والثقافية والعلمية والتقنية، بحيث يطغى عليها الاتجاه من أوروبا إلى العالم العربي في الأغلب الأعم.

-غلبة السعي إلى تعلم وسائل الأخذ من أوروبا، وتعلم وسائل وتقنيات الأخذ، والنقل، والاستيراد، والتوطين، وبخاصة في المجالات الفكرية والعلمية والتقنية.

-وضعية بنيات النقل والاستقبال المعرفي في المجال العربي لم تَقْوَ بعد على خلق دينامية خاصة بها لتقوم بدورها بعملية الإنتاج والدفع في الاتجاه المعاكس.

هذه العوامل أساسية في فهم أي انتقال للمعارف بين المجالات الفكرية والعلمية والثقافية المختلفة. وهي عوامل محكومة بالتراكم التاريخي والمعرفي والمؤسساتي الذي يحدد هذه العلاقة القائمة إلى اليوم. ولا شك أن فعل نقل المعرفة من المجال الأوروبي إلى المجال العربي سيكون محكوماً بجانب من تلك الجوانب، ويؤثر عليها، بشكل أو بآخر. وهذا لا يعني أن هذا الوضع التاريخي هو وضع له جذور جوهرانية ثابتة مرتبطة بالإنسان العربي وثقافته وعقيدته الدينية الإسلامية، وأن هذا الوضع، بمثل هذا التوصيف، هو الذي يتحكم في هذه العلاقة بين المجالين الأوروبي والعربي، كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين الذين يبررون به هذا التفاوت التاريخي والحضاري الحديث بين المجال الأوروبي والمجال العربي، حتى أصبح عندهم تفاوتاً جوهرانياً وأصلياً أحياناً (2). إنه هو، بالأحرى، وضع تاريخي بالأساس، لا يمكن ربطه بشكل مطلق، أو شبه مطلق، بالتصور الجوهراني والأصلي الذي يلغي البعد التاريخي والزمني والتطوري الذي يختص به الكائن البشري أينما كان وكيفما كان. والأجدى بنا أن نربط ذلك التفاوت التاريخي والحضاري بمواقع الفكر والعلم والفن في المنظومة العربية السياسية والفكرية والعلمية والثقافية، وبدرجة تأصُّل وتراكم وتَجَذُّر أنساق تلك المواقع في الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة.

وعندما نكون أمام فعل نقل نظرية التلقي إلى مجالنا العربي لا بد أن نستحضر طبيعة هذا المجال المعرفي الذي يتحكم في عملية النقل، وبالخصوص نقل الرأسمال الرمزي، الفكري والفني، المرتبط بتاريخية التعامل عندنا مع المعرفة، وبخاصة التعامل مع المعرفة النظرية الفكرية والأدبية والفنية. فنظرية التلقي ظهرت في مجال أوروبي وأمريكي، وفي مواقع فكرية وثقافية ونقدية لها ديناميتها الخاصة، ومؤسساتها العلمية والأكاديمية والإعلامية التي تقوم على التتبع والملاحقة والملاحظة لكل إبداع علمي وفكري جديد. وتحاول باستمرار أن تعرض ذلك الإنتاج الفكري والفني في سوق القيم الرمزية، حيث توجد المناقشات العلمية والأكاديمية التي تقوم بالتحليل والتقييم والفرز والانتقاء لكل إنتاج علمي وفكري وفني وثقافي يحمل قيمة إضافية جديدة في ميدانه، ثم تعطيه بعد ذلك صلاحية التداول في الفضاءات العلمية والفكرية والفنية والثقافية المختلفة. وبهذا يتحكم هذا النظام العلمي المؤسَّس في مسارات الإنتاج الفكري والعلمي والفني والثقافي، بل إنه يحاول إطلاق إبدالات Paradigms جديدة ثم يعطيها صلاحية التداول ويتم الاسترشاد بها في المعارف المختلفة (3).

II- فعل انتقال نظرية التلقي

فعل الانتقال أو السفر أو الرحلة أو الهجرة لا يختص بالإنسان فقط، وإنما يطول كذلك الأفكار والمعارف المجردة أيضاً. ولعل التنقل والترحال بين الأماكن والأمصار هو فعل بشري حضاري عبر تاريخ البشرية. غير أن فعل الانتقال أو السفر هذا عرف بدوره فترات نشيطة وأخرى ساكنة. فقد كان نشيطاً بين العالم الأوروبي والعالم العربي في عصور ازدهار الحضارة العربية في بغداد وقرطبة وغرناطة وغيرها من المراكز الحضارية العربية. ولعل ما عرفه انتقال المعارف من مجال ما بين النهرين وفارس ومصر إلى اليونان مثلاً (4)، أو انتقال المعارف من اليونان إلى العالم العربي وغير العربي، يشهد على ما عرفه فعل انتقال المعارف من تغير مواقعه وتبادل هذه المواقع عبر العصور. ويمكن أن نسوق مثالاً تاريخياً معروفاً في الثقافة العربية القديمة المتعلق بانتقال النظريات، بل وتقاسمها كذلك، بما قام به ابن رشد، فيلسوف قرطبة، من نقل وشرح لمؤلفات أرسطو وتوضيح معانيها للأندلسيين. "فقد طلب ابن طفيل، الذي كان بدوره فيلسوفاً ومستشاراً للأمير الموحدي، من ابن رشد توضيح نص أرسطو للأندلسيين وفقاً لرغبة الأمير أبي يعقوب بن يوسف"(5). واستجاب ابن رشد لرغبة الأمير، وقال: "فكان هذا الذي حمَلني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطاطاليس"(6).

ولا بد من التنبيه في البداية إلى طبيعة العلاقة بين الثقافة العربية الكلاسيكية والثقافة اليونانية القديمة التي أنتج فيها ابن رشد تلخيصه لأرسطو ونقله لنظرياته. وأهم ما يميز هذا النوع من النقل النظري في الثقافة العربية الكلاسيكية هو التصور القائم على المقايسة Analogy، التي تفيد التشابه والاختلاف وبالأخص تشابه العلاقات (7). والمقايسة المقصودة هنا هي المقايسة الثقافية بين الثقافة اليونانية والثقافة العربية. فقد جعل ابن رشد، مثلاً، كتاب أرسطو هو الأصل فيما يتعلق بالكليات الشعرية الإنسانية، ولكنه لم يجعل الثقافة العربية فرعاً تابعاً لها، وإنما ولَّد منها أصلاً آخر يوجد في الثقافة العربية. من هنا يمكن أن نفهم عدم مجاراة ابن رشد لبعض التصورات التي جاء بها كتاب "فن الشعر" لأرسطو. ويبدو أن ابن رشد قد استعمل المقارنة الثقافية القائمة على آليات القياس الثقافي والترجمة الثقافية، وليس القياس المنطقي الصارم، أو الترجمة الحرفية.

مثل هذا الفعل في نقل المعارف النظرية في ثقافتنا القديمة يختلف عن موضوعنا الخاص بنقل نظرية التلقي، نظراً لغياب إمكانية المقايسة الثقافية في وضعنا الفكري والثقافي الحديث، وعدم وجود أصل نظري لهذه النظرية يمكن أن يتولد منه أصل آخر مقارب أو مشابه لتصور نظرية التلقي. ولهذا نستبعد هنا الاعتماد على المقايسة، حتى لا نسقط في تبسيط فعل انتقال نظرية التلقي، ومن ثم تبسيط النظرية ذاتها، ونضيع في البحث في تراثنا الثقافي عن بعض الممارسات الفكرية والأدبية التي توحي بأشكال من التلقيات، ولكنها لم ترق لتصبح موضوعاً مستقلاً يمكن التفكير فيه والتنظير له. فعل انتقال نظرية التلقي محكوم، إذن، بالوضع التاريخي والثقافي لمعرفتنا العربية الحديثة، ويختلف عن وضع معرفتنا وثقافتنا في عهد ابن رشد. ومع ذلك، فقد نستلهم هنا الروح العلمية والمنهجية والتاريخية التي وجهت فعل ابن رشد الفكري والثقافي، ألا وهي روح السعي إلى تملك معرفة الآخر، تملكاً صحيحاً ودقيقاً، وإعطاء تلك المعرفة بعداً فكرياً وثقافياً وحضارياً عربياً إنسانياً.

فعل الانتقال مرتبط بفعل التحرك والسفر من مكان إلى آخر، ومرتبط بالتجربة والمعرفة واكتساب الحكمة واكتشاف الآخر واكتشاف الذات بالآخر في نفس الوقت. ففي البعد نتمكن من معرفة أنفسنا، ومن توسيع آفاقنا ونظرتنا إلى العالم (8). والمهم بالنسبة إلينا من مفهوم التنقل والسفر، هو فعل الانتقال والسفر في حد ذاته، الذي يتطلب مجهوداً فكرياً للقيام به، ولنقل معرفة معينة بعينها كنظرية التلقي مثلاً. إن فعل هذا الانتقال مثل أي فعل تواصلي؛ فعل يقتضي إنتاج التواصل الخاص بالمادة الفكرية التي هي نظرية التلقي. فإذا كان علماء اللسانيات، وعلماء التواصل، وكذا علماء

القراءة، قد حددوا أفعالاً خاصة لموضوعاهم، فإن فعل انتقال النظرية بدوره يستفيد كثيراً من مختلف تلك التواصلات التي تهتم بنقل نوع من المعرفة بشكل عام. فما هي الأفعال الخاصة بنقل نظرية التلقي؟

بما أن فعل انتقال نظرية التلقي مرتبط بنقل تصور نظري معرفي من مجال أوروبي وأمريكي إلى المجال العربي، فإن الأفعال التي قد تتحكم في هذا النقل هي مرهونة باستقراء تجربة هذا الانتقال، واستخلاص بعض الأفعال الدالة الفاعلة فيه، والتي أدت إلى وجود هذه النظرية في الحقل النقدي العربي المعاصر، وبالتالي تداولها عربياً؛ من حيث الفهم والتأويل والتوظيف والاشتغال، وإنتاج معرفة نقدية عربية. وقد عرف النقد العربي الحديث منذ أواخر القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين تجارب نقل المعرفة النظرية والعملية الأوروبية والأمريكية الحديثة. فالمناهج النقدية الحديثة والمذاهب الأدبية والفلسفية والفكرية قد تم نقلها من أوروبا وأمريكا بأنواع من النقل المختلفة. وما نقل نظرية التلقي إلا حلقة من حلقات ذلك التواصل العالمي الذي عرفه ويعرفه العالم العربي. وربما تحتاج هذه الممارسة الفكرية والمنهجية والعلمية والثقافية والتواصلية إلى جعلها موضوعاً للتفكير والنظر فيها بشكل علمي حتى نَتَبَيَّن آليات اشتغال هذه الممارسة وهذا الفعل الثقافي الإنساني ونطوره. وعندما نستقرئ، مثلاً، فعل انتقال نظرية التلقي إلى النقد العربي المعاصر، قد نتوصل إلى أفعال هذا الفعل ووظائفه وطرق اشتغاله، وبالتالي آثاره الفكرية والعلمية والمنهجية على النقد العربي المعاصر. ويمكن أن نحدد فعل انتقال نظرية التلقي في الأفعال التالية:

1- **التعرف على النظرية في مجالها الأصلي، الأوروبي والأمريكي**. ويدعى فعل الاتصال بالنظرية. وهذا الاتصال قد يتم بطريقة مباشرة في فضائها الأصلي وفي لغتها ومظاهما الأساسية، أو بطريقة غير مباشرة عن طريق الفضاءات الثقافية الوسيطة بلغاتها ومنشوراتها عن تلك النظرية.

2- **زمن التعرف على النظرية**. وفيه نتبين مدى مواكبة الزمن الأدبي العربي للزمن الأدبي الذي عرفته نظرية التلقي. وغالباً ما يكون هناك تفاوت، قد يطول أو يقصر، بين زمن إنتاج النظرية الأصل، التلقي هنا، وزمن نقلها إلى النقد العربي. وربما تم نقل نظرية التلقي عندنا وهي في مراحلها الأخيرة، بعد أن استوت وأُشبعت دراسة وتحليلاً ونقداً. ولعله قد تم التعرف عليها قبل استوائها من قبل بعض الباحثين العرب، ولكن نقلها وترجمتها إلى العربية، وإدخالها في نسق التداول الجامعي والثقافي العربي كان متأخراً.

3- **قنوات نقل النظرية**. أهم قناة في نقل المعارف الأجنبية والنظريات هي الترجمة، سواء من لغتها الأصلية أو من اللغة الوسيطة. وغالباً ما اعتُمد أكثر في نقل نظرية التلقي إلى النقد العربي على اللغات

الوسيطة الأساسية، كالإنجليزية والفرنسية، وعلى غيرهما بدرجة أقل. أما اللغة الألمانية التي ظهرت بها بعض أهم أعمال هذه النظرية، فنادراً ما تم النقل منها. ولفعل النقل بالواسطة بعض مزاياه كذلك؛ منها أن اللغة الوسيطة تفسر وتوضح أكثر ما قد يكون غامضاً أو صعباً في اللغة الأصل. وكذا المناقشات والتحليلات والانتقادات التي تقدمها الفضاءات الثقافية الوسيطة تكون غنية ومفيدة في فهم النظرية أكثر.

4- الصورة التي وصلت بها نظرية التلقي إلى النقد العربي المعاصر. وصلت نظرية التلقي إلى فضاء النقد العربي المعاصر في صورته العامة، وفي كلياتها الأساسية، من جهة، وفي بعض تفاصيلها التي ظهرت في الفضاءات الوسيطة. وربما كان حضور الفضاءات الوسيطة قوياً. وقد استفاد هذا النقل من إنجازات بعض الفضاءات الثقافية والعلمية الأوروبية الأخرى- الفرنسية والبريطانية والإيطالية مثلاً- والأمريكية. غير أن هذا النوع من النقل، رغم ميزته كما ذكرنا، قد يُعفي النقد العربي من المشاركة في مسار تشكّل النظرية والمساهمة في إغنائها. ولهذا يكون النقد العربي في هذه الحالة متلقياً، ربما جيداً، لمعرفة نظرية جديدة ستفيده بدون شك، ولكن دون رد فعل علمي خلال مسار تكونها. وربما لا يتم إغناؤها وتبين قوتها وحدودها إلا عند الاشتغال بها داخل النسق الأدبي العربي وداخل الثقافة العربية.

III- مكونات نظرية التلقي

ولتقديم صورة عامة مختصرة عن هذه النظرية التي سيتم التعرف عليها ونقلها في مفاصلها الأساسية دون التركيز على دقائقها وتفاصيلها وتشعباتها، سنعمد إلى تقديم كليات هذه النظرية، بعد أن استوى منها ما استوى، وخضع بعضها للنقد والتمحيص والدحض أحياناً.

تتكون هذه النظرية في أصولها الألمانية من شقين كبيرين، هما: جمالية التلقي، ونقد استجابة القارئ. والمنظر الأساسي للشق الأول، هو هانس روبرت ياوس Hans Robert Jauss (1921-1997)، والمنظر الأساسي للشق الثاني، هو فولفجانج إيزر Wolfgang Iser (1926-2007). وسأترك إيزر نفسه، في بعض أبحاثه المتأخرة (9)، يقدم لنا مرتكزات هذه النظرية في شقيها.

يرى إيزر أن ما يعرف اليوم بجمالية التلقي أو نقد استجابة القارئ ليس نظرية موحدة. ويميز فيها بين تيارين أساسين من التفكير رغم تداخلهما، هما جمالية التلقي، ونقد استجابة القارئ."فالتلقي يركز على السيرورة التوثيقية للنصوص، ويرتبط أساساً بردود الأفعال والمواقف التي تكيف استجابات القارئ. ولكن النص نفسه هو في نفس الوقت شكل مُبَنْيِن لتلك الاستجابات، بحيث يُدمج قدرة الوقع

الذي يبادر إلى تحريك السيروة، ويُبنيها إلى درجة ما". فالوقع والتلقي هما حجرا الزاوية في نظرية التلقي، بحيث يجمعان بين التلقي الاجتماعي التاريخي والوقع النظري النصي. ولا بد من تضافر التيارين حتى يكون نقد استجابة القارئ مثمراً. ولكن ما هو المظهر التاريخي لنظرية التلقي؟

يجيبنا هانس روبرت ياوس، صاحب هذا التصور بما يلي: "إن إعادة بناء أفق الانتظارات بالصورة التي خُلق به العمل الأدبي، وتُلقي بها في الماضي تسمح بطرح أسئلة قد قدم لها النص جواباً، ومن اكتشاف الكيفية التي استطاع بها القارئ المعاصر أن ينظر إلى العمل الأدبي ويفهمه. وهذه المقارنة تُصَحِّحُ، في الغالب، المعايير غير المعترف بها للفهم الكلاسيكي للفن أو الفهم الحديث له، وتتحاشى الرجوع المستمر إلى "روح العصر" العام. وتؤدي هذه المقاربة إلى النظر في الفرق التأويلي بين الفهم السابق والفهم الحالي للعمل. كما تعيد إلى الوعي تاريخ التلقي الذي يتوسط وضعية الفهم السابق والفهم الحالي، وبالتالي تناقش الادعاءات البديهية في الظاهر بأن الأدب حاضر دوماً في النص الأدبي، وبأن معناه الموضوعي، المحدد مرة واحدة وإلى الأبد، في متناول المؤوِّل على الفور وفي كل وقت وحين. وتعتبر هذه الادعاءات عقيدة أفلاطونية للميتافزيقا الفيلولوجية. إن نظرية جمالية التلقي لا تسمح فقط بإدراك معنى وشكل العمل الأدبي في المسار التاريخي لفهمه، ولكنها تفرض أيضاً، إدخال العمل الفردي في "سلسلته الأدبية" للتعرف على وضعيته التاريخية ودلالته في سياق تجربة الأدب. ويبدو الانتقال من تاريخ التلقي للأعمال الأدبية إلى التاريخ الحدثي للأدب، أنه سيرورة يكون فيها التلقي السلبي على عاتق المؤلفين. ومن جهة أخرى، فإن هذا العمل الأدبي اللاحق يمكنه أن يحل مسائل الشكل والأخلاق التي تركها وراءه العمل الأدبي الأخير ويطرح من جديد مشاكل أخرى"(10).

ولكن ما هي الأطر المحددة لتقدير العمليات التي تمكن النص من إثارة انتباه القارئ؟ يجيب إيزر في تصوره النظري لنظرية التلقي بالتركيز على البُنَى النصية التي تستدعي استجابة القارئ. فالتلقي بالنسبة لإيزر هو منتوج يُنشئه القارئ، ولكنه محمّل بالمعايير والقيم التي تتحكم في تصور القارئ. ولذلك فالتلقي هو مؤشر على أنواع التفضيل وضروب من الميول التي تظهر استعداد القارئ، بالإضافة إلى الظروف الاجتماعية التي شكلت مواقفه. ولهذا اهتم إيزر بالقراءة كفعل، وبالقارئ كدور، وبالبنيات النصية، والعلاقة بين النص والقارئ.

وقد فصل كل من ياوس وإيزر تصوراتهما النظرية في مقالات وأبحاث وكتب أساسية هي التي تعتمد في قراءتها أولاً، ثم فيما كتب عن هذه النظرية في مختلف الفضاءات والمنابر العلمية الأخرى في أوروبا وأمريكا، وغيرهما. ولاشك أن هذه الفضاءات الأصلية والفضاءات الأخرى، الأوروبية

والأمريكية، هي التي تحدد مواقع هذه النظرية. ولا شك أن تنوع هذه الفضاءات واختلافها لن يجعل نقل نظرية التلقي إلى النقد العربي أمراً سهلاً.

IV- الفضاءات العلمية التي ظهرت فيها نظرية التلقي

يمكن تحديد الفضاءات العلمية التي ظهرت فيها نظرية التلقي في الفضاءات العلمية التالية:

1- الفضاء الجامعي والأكاديمي. ويتمثل هذا الفضاء فيما كان يعرف بالمانيا الغربية، وفضاء ما كان يعرف بالمانيا الشرقية إلى حدود توحيد الألمانيتين في سنة 1989، والفضاء الأوروبي الآخر، مثل هولاندا وفرنسا وإيطاليا، والفضاء الأنجلو- أمريكي. وغالباً ما ارتبطت هذه النظرية ببعض المجموعات في بعض الجامعات أو ببعض الباحثين، مثل ياوس وإيزر في ألمانيا الغربية، في جامعة كونستانس، وناومان في ألمانيا الشرقية في جامعة هامبولت ببرلين الشرقية، وأمبرطو إيكو في إيطاليا، ورولان بارط في فرنسا بباريس، وجماعة جامعة يال بالولايات المتحدة الأمريكية. مع ما تفرع في هذه الفضاءات من باحثين وأكادميين آخرين يهتمون بالنظرية ويتدارسونها. بالإضافة إلى ظهور فضاءات علمية أخرى حاولت مواجهة تصورات هذه النظرية، مثل التصورات التجريبية والتشييدية في أوروبا، هولاندا وألمانيا كذلك. أي أن هذه النظرية دفعت البحث العلمي في مجال الدراسات النصية والتأويلية إلى مجالات نظرية جديدة.

2- فضاء الدوريات والمجلات العلمية المتخصصة، إلى جانب الكتب والمنشورات العلمية، والكتابات في الصحف الأدبية المتخصصة بدورها. هذا الفضاء لعب دوراً هاماً في مواكبة النظرية ونشرها وتداولها ومناقشتها وتحليلها ونقدها وتمحيصها، بل دفعت هذه النظرية إلى ظهور بعض المجلات والدوريات المتخصصة التي تهتم بهذه النظرية وما تولد عنها من تصورات نقدية جديدة.

3- فضاء سوق القيم الرمزية، حيث يتم تقييم الإنتاجات العلمية والفكرية والأدبية والثقافية. ويتجلى ذلك الفضاء في الملتقيات العلمية، والمؤتمرات التي خصصت لهذه النظرية، وكذا الندوات العلمية والمناقشات التي واكبت هذه النظرية، والتي كانت بين الباحثين والمهتمين في جامعات مختلفة بأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرهما.

4- فضاء التنقلات المختلفة التي قام بها رواد نظرية التلقي. فعندما نتابع التحركات العلمية لكل من ياوس، وإيزر، وأمبرطو إيكو، وغيرهم في أوروبا وأمريكا، نلاحظ أهمية مناقشة أصحاب هذه

النظرية للباحثين والقراء، وكذا التعديلات والتغييرات التي طرأت على مسار تعديل واستواء تصوراتهم النظرية.

5- فضاء الترجمة. لقد ترجمت نظرية التلقي إلى لغات مختلفة وفضاءات ثقافية مختلفة ومتنوعة، تناولتها بالدرس والتمحيص والنقد كذلك. ولكن فضاء الترجمة قد أمدها بحساسية ثقافية وتجارب جديدة خاصة بها. وقد كان لذلك، ولاشك، أثر هام على إغناء تصورات هذه النظرية وتوسيع أفقها.

6- فضاء المنظومة التربوية والجامعية، بحيث أدرجت هذه النظرية في النظام التربوي والبرامج الجامعية والتواصلية لما تبين للمهتمين بالشأن العلمي والتربوي أهمية هذه النظرية في تطوير العلاقات التربوية وتطوير القراءة والتواصل الأدبي والثقافي.

7- فضاء الموسوعات الأدبية العامة، والمعاجم الأدبية والنقدية المختصة، بحيث مكنها هذا الفضاء من الدخول في سوق التداول اللساني، والأدبي والنقدي.

ولإبراز بعض الجوانب الخاصة بمسار هذه النظرية، سأحاول أن أركز على جانب يتعلق بتكون جانب من هذه النظرية، وبما قام به أحد منظريها الأوائل، وهو هانس روبرت ياوس (1921-1997). وسأقتصر على دوره في ذلك، وعلى ما قام به من إجراءات وتنقلات علمية عندما كانت نظرية التلقي في مستواها التاريخي تتشكّل وتتكوّن.

V- تَكَوُّن نظرية التلقي

لا بد من التذكير في البداية بأن ظهور نظرية التلقي في ألمانيا كان مرتبطاً بالوضع الذي كانت تعرفه الجامعة الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية، ونوع المناهج والمقاربات العلمية والأدبية والتربوية التي كانت سائدة في ذلك الوقت. فقد كانت المقاربات الوضعية والفقه لغوية (الفيلولوجية) هي السائدة، والتي أدت إلى جمود الدراسات الأدبية، في الوقت الذي قد تم التخلي عن هذه المقاربات في فرنسا، مثلاً. ومن أبرز من كان يمثل هذا التيار، إرنست روبرت كورتيس (1886-1956) Ernest Robert Curtus، وبالخصوص في كتابه المشهور، "الأدب الأوروبي والعصر الوسيط اللاتيني" (1948)، وإريك يورباخ (1892-1957) Erich Auerbach، والمشهور بكتابه، "المحاكاة"(1946) Mimesis، وليو سبيتسر(1887-1960) Leo Spitzer المعروف بكتابه، دراسة الأسلوب (1928). ومن أهم الباحثين الألمان الذين رأوا في تلك المناهج تجميداً للدراسات الأدبية هانس روبرت ياوس. وبعد هذا الحافز التاريخي لتكون بوادر نظرية التلقي نستعرض مسار نظرية التلقي من خلال أحد روادها، هانس روبرت ياوس.

أسس ياوس في سنة 1966 مجموعة بحث حول " الشعرية والتأويل "Poetik und Hermeneutik مع زميلين آخرين من جامعة جيسن، وهما هانس بلومبرج Hans Blumberg، وكليمنس هزلهاوسClemens Heselhaus، وبصحبة فولفجانج إيزر Wolfgang Iser (1926–2007) من جامعة فورتسبورج Würzburg. وقد نشر من أعمال هذه المجموعة ثلاثة عشر مجلداً، وكان المجلد يظهر كل سنتين.

وفي سنة 1966، تأسست جامعة كونستانس Konstanz ، كجزء من الإصلاح الجامعي في ألمانيا الغربية، وقد استُدعي ياوس من طرف أستاذه القديم في هيدلبورج، جيرهارد هيس، ليكون عضواً في هيأة تدريسها. وقد تأسست هذه الجامعة على بنية التعاون وتداخل التخصصات "لوحدات التدريس والبحث"، تبعاً لمبدأ همبولت القائم على تطوير التدريس من البحث. كان ياوس يشتغل في عدة لجان، وكان يعمل بشكل خاص على تأسيس"قسم الدراسات الأدبية" literaturwissenschaft Fachbereich. ويمثل هذا القسم بنية علمية جديدة، سرعان ما ستنتشر في ألمانيا في ذلك الوقت.

وقد تشكل القسم من خمسة أساتذة من مختلف التخصصات، نظموا أنفسهم في مجموعة بحث، ستصبح فيما بعد ما يعرف "بمدرسة كونستانس". وتتكون هذه المجموعة من: فولفجانج إيزر، متخصص في الدراسات الإنجليزية، وفولفجانج برايزندنتس W. Preisendenz، متخصص في الدراسات الألمانية، ومانفريد فورمان Manfred Fuhrmann، متخصص في اللاتينية، وهانس روبرت ياوس متخصص في الفرنسية، ويوري ستريدر Jury Striedter، متخصص في السلافية. وكان الدرس الافتتاحي الذي ألقاه ياوس بعنوان: " التاريخ الأدبي كتحد للنظرية الأدبية"(11) درساً مثيراً، لأنه كان يحمل برنامجاً لدعوته إلى المقاربة الجديدة في الدراسات الأدبية. وقد شهدت السنوات اللاحقة نقاشات وتطبيقات لهذا البرنامج وتطويراً له.

وعندما نستعرض نشاطه العلمي الجامعي والأكاديمي سنعرف مدى خضوع تجربته العلمية والنظرية للمناقشة والتحليل في فضاءات علمية وأكاديمية في أوروبا وأمريكا بشكل خاص. وأوجز هنا تنقلاته العلمية التي صقلت تصوراته النظرية كما يلي:

خلال حياته العلمية والأكاديمية كان أستاذاً زائراً في الجامعات التالية: جامعة زوريخ، 1967–1968. جامعة برلين، 1968–1969. جامعة كولومبيا بنيويورك، 1973. وجامعة يال بأمريكا، 1976، ثم في 1977. وجامعة السوربون الرابعة، 1978. وجامعة لوفن البلجيكية، 1982. وجامعة كالفورنيا – باركلي، في 1982، و1985. جامعة برنستون، 1986. جامعة ويسكنسن ومادسون، 1986.(12)

أما زميله فولفجانج إيزر، الذي اعتنى بالشق الثاني في نظرية التلقي الألمانية، الخاص بفعل القراءة، والعلاقة بين النص والقارئ، فقد عرف بدوره تنقلات علمية وأكاديمية مماثلة، بل استقر به المقام في الأخير في إحدى الجامعات الأمريكية بكالفورنيا.

VI- نظرية التلقي في النقد العربي المعاصر

لقد أشرنا من قبل إلى فعل انتقال النظرية في أبعاده الإبستمولوجية والتاريخية، وإلى بعض الأفعال التي تخص نقل نظرية التلقي إلى النسق الثقافي العربي، وإلى النقد الأدبي العربي بشكل خاص. وللوقوف على الممارسة الفعلية لهذا النقل التي تمت عن طريق فعل الترجمة أساساً، نشير إلى أن حصيلة ما ترجم من هذه النظرية إلى العربية لا يغطي الفضاءات العلمية الخاصة بنظرية التلقي التي أشرنا إليها من قبل. ومع ذلك، فإن ما ترجم منها وبخاصة منذ تسعينيات القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين يسمح بتكوين تصور معقول عن نظرية التلقي في النسق الثقافي العربي وفي النقد العربي بخاصة.

ولتكوين صورة تقريبية عن حضور نظرية التلقي في النقد العربي المعاصر، نشير إلى أهم ما ميز هذا النقل، والفضاءات التي ظهر فيها ذلك.

1– زمن نقل نظرية التلقي: يبدو زمن الاتصال بهذه النظرية قد بدأت ملامحه في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين، سواء في المشرق العربي أو في المغرب العربي (13).

2–كان الاهتمام في هذا النقل منصباً على المصادر الأولى الأساسية لنظرية التلقي، وعلى أعلامها الأساسيين في ألمانيا وأوروبا وأمريكا.

3–فعل الترجمة: تمت ترجمة هذه النظرية بطريقة متقطعة ومجزأة، بحيث لم تتم ترجمة المصادر الأساسية لهذه الترجمة في بدايات نقلها، ولكن كان نقل الفصول والمقالات هو الغالب، رغم ظهور بعض الكتب الكاملة مترجمة عن هذه النظرية، ولكنها قليلة. وأن هذه الترجمة لا تخضع لتصورات مؤسساتية توفر الإمكانات التي تتطلبها عملية النقل والترجمة والمواكبة المستمرة، ولكنها ترجمة محدودة ومتقطعة يقوم بها بعض الباحثين بدافع الروح العلمية. ومع ذلك، فهذه الترجمة هي التي يعود إليها الفضل في نقل نظرية التلقي. وهنا لابد من التمييز بين التعرف على النظرية الذي تحدثنا عنه، وبين الترجمة. فالترجمة هي التعرف الملموس المنقول باللغة إلى العربية، وهو الذي يسمح بالاطلاع عليها في النسق العربي، ويكون له تأثير ودور في نقل النظرية والتعريف بها. وهناك تعرّف

آخر يقوم على الاطلاع على النظرية في لغاتها الأجنبية المختلفة، ولكن لا يُنقل ذلك الإطلاع وذلك التعرف إلى العربية بالترجمة، وإنما يُوظف ذلك التعرف على تلك النظرية مباشرة في الحقل الأدبي العربي. ويلاحظ هذا النوع من التعرف أكثر في الأقطار المغاربية.

-اهتم فضاء بعض المجلات الأدبية بنقل هذه النظرية والبحث فيها. وربما كان للمقالة في الدوريات والمجلات دور كبير في التعريف بنظرية التلقي.

عقدت لقاءات وندوات ومناقشات لهذه النظرية في العالم العربي. كما تمت مبادرة الاتصال بأعلام هذه النظرية في بعض الأقطار العربية.

-أصبحت هذه النظرية تدرس في الجامعات العربية، ويبحث بها في الأدب العربي إلى جانب النظريات الأدبية الأخرى. والحق أن النقد العربي قد اهتم بهذه النظرية، ومازال، ووظفها توظيفاً مختلفاً، من الناحية العلمية والفنية والتربوية، ولإيديولوجية كذلك.

-ساهمت هذه النظرية في توسيع أفق النقد العربي المعاصر، من حيث التصور النظري والمنهجي، ومن حيث الغنى المفاهيمي والمصطلحي والأسلوبي.

ومن الصعب أن ندعي بأن النقد العربي قد نقل كل فضاءات نظرية التلقي وكل ما اعتراها من مناقشات وتعديلات وانتقادات، ومع ذلك فقد استعمل النقد العربي إمكانياته الممكنة والمتاحة له؛ وهي، كما نعلم، إمكانيات محكومة بوضع المنظومة الجامعية والأكاديمية العربية.

الخلاصـــة

حاولنا في هذا العرض أن نعالج عملية نقل نظرية التلقي، وما يتميز به هذا النقل. كما بينا مختلف الفضاءات المختلفة التي عرفتها هذه النظرية لنبين مدى اتساعها وتنوعها واختلافها، وكذا الصعوبات التي تضعها أمام كل من يريد التعامل معها، وبخاصة نقلها. وأشرنا إلى المكونات الأساسية لهذه النظرية، وكيف تم ظهورها وتكوّنُها حتى استوى منها نظرياً ما استوى. وأعطينا نموذجاً لبعض منظريها من أجل إظهار الجهد الفكري الفردي والجماعي الذي يلتقط متطلبات عصره، ويحول رغباته في التجاوز إلى فعل علمي منظم ومؤسس يساعد على خلق إبدالات جديدة تجد استجابة لها في الوسط العلمي، وفي المجموعة التي تهتم بتطوير الدراسات الأدبية بشكل خاص. أما فعل النقل العربي لهذه النظرية فقد تعاملنا معه حسب الإمكانيات التي تحكم المنظومة الجامعية والأكاديمية، وبخاصة فعل الترجمة المتواضع الذي بذل مجهوداً تحمَّله بعض الباحثين والمهتمين العرب بدافع روحهم العلمية.

والمؤمل في المستقبل أن تتحول هذه المجهودات الفردية إلى مجهودات مؤسساتية لها تصورات علمية واضحة لعملية نقل المعرفة المعاصرة إلى النسق الفكري والعلمي والثقافي العربي.

الهوامش

1- هومي بابا، Bhabha Homi K. ، ***موقع الثقافة***، *The Location of Culture*, London ; New York : Routledge, 1994.

2- من الباحثين الذين يمثلون هذا التصور برنار لويس، Bernard Lewis أستاذ ومؤرخ، مختص في الدراسات التركية ودراسات الشرق الأوسط، والدراسات الإسلامية. له مؤلفات عديدة خاصة بالشرق الأوسط والدراسات الإسلامية، ومعروف ببعض مواقفه المتعصبة للحضارة الأوروبية، والغض من الحضارة العربية والإسلامية. وقد تجلى ذلك أكثر في كتابه بعنوان: ***ماذا حصل؟ الصدام بين الإسلام والحداثة في الشرق الأوسط***. ***What Went Wrong? The Clash Between Islam and Modernity in the Middle East***, *(New York, 2002)*

3-.ينظر في مفهوم **paradigm/e** في كتاب توماس كون، بعنوان: **بنية الثورات العلمية**، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، عدد 168، الكويت، 1992، وعنوانه الأصلي هو: Thomas S. Kuhn, ***the Structure of Scientific Revolutions***, The university of Chicago, 1962-1970. وقد ترجم فيه مصطلح **paradigm** **بالنموذج الإرشادي**، وهو تفسير معقول للمصطلح.

4- ينظر في هذا الشأن في كتاب مارتن برنال، **أثينا السوداء:الجذور الإفريقية الأسيوية للحضارة القديمة**، Martin Bernal, ***Balck Athena : The Afroasian Roots of Classical Civilization,*** Rutgers University Press, New Brunswick, New Jersey and Great Britain, t.I, 1987, t. II, 1991. ترجم الجزء الأول منه مجموعة من الباحثين: د. لطفي عبد الوهاب، د. فاروق لقاضي، د. حسين الشيخ، د. منيرة كروان، د. عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، عدد 16، 1997؟.

5- ***سفر النظريات***، تحت إشراف علي بنمخلوف، (سلسلة حوارات فلسفية)، نشر الفنك، الدار البيضاء، 2000، ص. 6.

6- عبد الواحد المراكشي، ***المعجب في تلخيص أخبار المغرب***، القاهرة، 1949، ص. 243.

7- يُنظر في مفهوم "المقايسة" في كتاب : H. W. Leatheherdal, ***The Role of Analogy : Model and Metephor in Science,*** New-Holland Publishing Compagny, Amesterdam 1974, pp. 1-33. وكذلك كتاب محمد مفتاح، ***التلقي والتأويل: مقاربة نسقية***، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 1994، ص. 91-100، وص. 161-188.

8- ينظر فيما يتعلق بمفهوم انتقال النظريات والمعارف، في كتاب روكسان أوبن بعنوان: ***أسفار إلى البر الآخر: الرحالة المسلمون والغربيون يبحثون عن المعرفة***. Roxanne L. Euben, ***Journeys to the Other Shore : Muslim and Western Travelers in search of Knowledge*** , Princeton University Press, 2006, cShap. 2, pp. 20-45.

9- فولفجانج إيزر، *"آفاق نقد استجابة القارئ"*، ترجمة أحمد بوحسن، ومراجعة محمد مفتاح، وعنوانه الأصلي هو: ***"Reader response Criticism in perspective"***، نشر في كتاب جماعي بعنوان: *"قضايا التلقي والتأويل"*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 36، الطبعة الأولى، 1994ن ص. 211-227. وص. 5-16، بالنسبة للنص الأصلي.

10- Hans Robert Jauss, ***Toward an Aesthetic of Reception,*** transl. by Timothy Bahti, Minneapolis,1982,pp. 28 and 32.

11.- نُشرت هذه المقالة في كتاب ياوس : *من أجل جمالية التلقي"*، *Pour une esthétique de la réception*, Gallimard, Paris, 1978.

12- من أهم الأبحاث التي تتبعت مسار هانس روبرت ياوس، ووجدته عمدة أساسية فيما يتعلق بياوس ونظريته، كتاب الباحث، أورمان روش بعنوان: *تلقي العقيدة: تملك هانس روبرت ياوس، جمالية التلقي وفن التأويل الأدبي*. Ormond Rush, ***The Reception of Doctrine: An Appropration of Hans Robert Jauss. Reception Aesthetics and Literary Hermeneutics***, Editrice Pontifica Universià Gregoriana, Roma, 1997.

13- يمكن الرجوع هنا إلى مقالتي المفصلة عن نقل مفاهيم التلقي في كتاب جماعي بعنوان: *الترجمة والتأويل*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 47، 1995. وعنوان المقال هو: *نقل المفاهيم بين الترجمة والتأويل: نقل مفاهيم نظرية التلقي*"، ص. 83-100. وكذلك مقالتي بالفرنسية بعنوان: ***« La Presence de la Littérature Allemande au Maroc : le cas de la Théorie de la Réception », in Marocains et Allemands : la Perception de l'Autre,*** *publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines-Rabat, Série colloques et séminaires n : 44, 1995, pp. 129-133.*